المثليون/ات كضحايا على الشاشة

موسى الشديدي

في فيلم "طول عمري" (2008) للمخرج والناشط المصري ماهر صبري الذي يتحدث عن شاب مصري اسمه رامي بدأ نمط جديد مختلف في التعاطي السينمائي مع الشهوات غير المعيارية، تتضح مثلية رامي منذ المشهد الأول: ذلك المشهد الذي يتركه فيه عشيقه ليتزوج من امرأة. في تلك الأثناء تقع حادثة كوين بوت أو عبّارة ناريمان التي وقعت بالفعل في مصر سنة 2001 حيث اعتقلت الحكومة المصرية 52 شاب بتهمة «الشذوذ» وحاكمتهم وحكمت عليهم بالسجن، لنجد الفيلم يوثق لنا الأساليب التي استخدمتها السلطة في تعذيب وكذلك في اصطياد «المثليين» بين تجنيد بعضهم لفضح أقرانهم أو استخدام حسابات مزيفة على مواقع التعارف والمواعدة الخاصة بالرجال كما حدث لرامي بعد أن ذهب إلى موعد عن طريق إحدى تلك المواقع ، ليتم بعدها تعذيبه في السجن والحكم عليه بالحبس لثلاث سنوات كحد أقصى. يتمكن رامي من الهرب إلى الغرب قبل تنفيذ الحكم.

إنها محاولة لكسب التعاطف والشفقة من الجمهور وضحينة الشخصية المثلية، بعيداً عن وضع حادثة كوين بوت الفريد من نوعه والذي أتفهم صعوبته تماماً إلا أن هنالك سؤال في رأسي حول سبب إختيار قصة شخص مثلي يعتقل ويضرب ويحكم عليه ويهرب كواحد من الـ 52 الذين تم اعتقالهم في كوين بوت بدلاً من الحديث عن المئة الذين وهبوا حياتهم بعد تلك الحادثة للبقاء في مصر والصراع من أجل مساعدة أقرانهم وحمايتهم دون الهرب؟ كصناع سينما لماذا تجذبنا الصورة الدرامية الدامية للضحايا أكثر من الأمثلة القوية للمنتصر على المصاعب والتحديات التي يحتاج المجتمع أن يراها كي يشعر بالأمل؟ الأمل الذي يمثل الأوكسجين في الصراع اليومي الذي يعيشه كل فرد غير معياري الجنسانية في منطقتنا لا يريد الاستسلام.

هذا لا يقلل من شأن الانتهاكات وضحاياها بل على العكس يمنحها سياق مختلف لعرضها كمصدر للتحدي والاستمرار ويصورها كمحفز للانتصار، وبالتأكيد هذا لا يتنافى مع توثيقها والتنديد بها، لكن عرض «المثليين» كضحايا سيجعل «المثلي» يصدق تلك الصورة السينمائية عنه ويبقى ضحية طوال حياته عند تذويته لتلك الفكرة، وحتى لو تعاطف المجتمع معه سيمنحه الشفقة كضحية لا الاحترام كإنسان.

لقد طالب نصر فريد مفتي مصر بإحراق المخرج[1] مع أن الفيلم لم يعرض في مصر أصلاً. ألهذه الدرجة يخيف فيلم لم يعرض في بلاده مفتي تلك البلاد؟ ربما حان الوقت أن نخيفه أكثر اذاً! "طول عمري" كان الفيلم الأول الذي عرض حياة الفرد المثلي العربي كواقع وليس كشهوة عابرة لا أسم لها مختزلة بمشهد جنسي يتم التعامل معه بحذر أو بسياق اغتصاب أو تحرش أو استغلال جنسي بين شخص مثلي وآخر فقير، مكرساً اضطهاد طبقي كجزء من هذه الممارسة.

بعد خمس سنوات ظهر علينا هاني فوزي بخبر عمله على فيلم يتناول المثلية الجنسية ليثير ضجة كبيرة على وسائل الإعلام، بعد صراعات طويلة مع الرقابة التي منعت الفيلم في البداية استطاع الفيلم أن يخرج إلى النور بعد حذف 13 مشهداً من الشريط الأصلي، وهنا التقينا بأسرار عائلية لأول مرة، يبدأ بكشف مروان حقيقة ميوله الجنسية لأخته «أمنية أنا عايز أصارحك بسر، سر خطير أوي يا أمنية انا عارف إنك حاسة وفاهمة من زمان، أنا بعمري ما حسيت بمشاعر ناحية البنات عمري ما حسيت إني زي الولاد، أمنية أنا شاذ».

بعد عدة مشاهد نجده يتحدث مع الطبيب النفسي الذي تجبره والدته على الذهاب إليه يقول مروان «عمري ما انجذبت لبنت» فيرد عليه الطبيب « لكن بتنجذب للولاد مش كدة؟».
«أيوة أنا بحب واحد زميلي في الفصل هو اسمه شادي بس هو مش دريان بحاجة» فيسأله الطبيب محاولاً جعل النقاش جنسي جسدي بشكل بحت « وعاوز تنام معاه؟» ليسمي ميوله في النهاية اضطراب في الميول الجنسية واعتباره طبيعة سن المراهقة ويكتب له أدوية تقلل شهوته الجنسية ومضادات اكتئاب.

[1] باكينام رفعت، طول عمري: تجربة مصرية تجرأت على المحرمات، العدد 766 9 اذار 2009، الاخبار.

ثم يعثر على اسم ورقم الدكتور نبيل بركات ليسأله مروان « أنا عايز إجابة وحدة بس أنا تخلقت كدة وهفضل كده طول عمري خلاص وله أنا ممكن أتغير؟»، ليجيبه: «المشكلة مش فيك المشكلة مشكلة مجتمع بحالو يعني يمكن لو كنت عايش بمجتمع برا بيقبل حقوق المثليين مكنتش عانيت من الصراع اللي إنت بتعاني منه دلوقتي دي حتى برا دلوقتى مبقوش بيصنفو المثلية الجنسية على أنها مرض نفسي أصلاً».

بالرغم من أن الفيلم ينتهي به الأمر ليسوق لأفكار مغلوطة ويرسخها كما يبدو عن عمد للهرب من مقص الرقابة مثل اعتبار المثلية "مرض" يمكن علاجه في النهاية وإلى اعتبارها ناتجة عن اغتصاب تعرض له مروان في طفولته أو أم متحكمة وأب غائب إلى تسويق «العلاج التحويلي» الخطير والممنوع علمياً، إلا أننا لا يمكننا إنكار أن الفيلم نجح في أنسنة «المثلي» في السينما العربية ورفع سقف التعبير عن الهوية الجنسية بإسمها الصريح وعدم قتل المثلي في المشهد الأخير من الفيلم.

فأسرار عائلية بحسب بحثنا المتواضع هو أول فيلم عرض في دور العرض المصرية يذكر كلمة «المثلية» ففي جميع الأفلام التي ذكرناها (في هذا الكتاب) تم الإشارة للجنسانية غير المعيارية دون اسم هي فقط ذلك الشيء المعروض على الشاشة والذي يمكن للمشاهد ببساطة إعادة تأويله بطرق مختلفة، ولا أعرف إن كان ذلك جيد أم لا، فإلى أي مدى عنونة الأشخاص وفق جنسانيتهم مفيد في النضال من أجل أولئك الأشخاص غير المعياري الجنسانية؟ في كل من طول عمري وأسرار عائلية العمل السينمائي يتمحور حول المثلية فقط وكأن «المثلي» هو كائن فضائي غريب يجب عمل أفلام عنه لوحده مقموع بمفرده لا على أنه فرد القمع الساقط عليه هو قمع يسقط على الكثير غيره - من ذوي الجنسانيات غير المعيارية - في مجتمعاتنا لأسباب مختلفة، لقد حاول ماهر صبري إدخال قضايا النساء والقمع الموجه ضدهن وتقاطعية ذلك القمع مع قمع الأفراد بسبب ميولهم الجنسي في المجتمع لكنني أجده فشل في تلك المحاولة وبقي الفيلم متمحور بشكل جوهري حول المثلية الجنسية، أعتقد بأن أسلوب كهذا في عرض القضايا قد يلعب دور سلبي في ترسيخ عزل الأفراد «المثليين» عن مجتمعاتهم لا دمجهم فيها، وكأن تسمية الشهوة كان قد كسر تاريخ طويل من وجودها الكويري[2] على الشاشة من غير أن يتم وضع حدود لها أو شكل بعد أن كانت «حرة» متبخترة، ناهيك عن أن كلمة مثلي هي ترجمة عن كلمة homosexual في اللغات الأوربية والتي ابتكرها طبيب نمساوي مجري عام 1869، هذا ما يرجعنا إلى التغريب بشكل مختلف، المفارقة أن أول من قام بترجمتها إلى العربية بهذه الصياغة «المثلية» كان سيد قطب الإخواني أثناء حديثه عن دراسة سيجموند فرويد لجنسانية دافنشي، وكل هذا يدفعنا لفتح النقاش حول جدوى الهوية كوسيلة نضالية اليوم وإن كانت ضرورة فعن أي هوية نتحدث؟ عن هوية مترجمة تعيد إنتاج التغريب بسياق آخر؟ وربما تكون السينما مساحة مناسبة جداً لعقد هذا النقاش.

حتى تأتي ميسلون حمود المخرجة الفلسطينية في فيلمها بر بحر (2016) لتعرض قصة ثلاث فتيات فلسطينيات من مدن مختلفة يتشاركن السكن في تل أبيب بسبب دراستهن وعملهن فيها، الفيلم يصور القمع الذي يقع عليهن لأسباب وأشكال مختلفة، إحداهن سلمى من ترشيحة تتعرف على فتاة فلسطينية وتقع في حبها، الفيلم جريء فإن تشاهد امرأة عربية تقبل امرأة عربية أخرى دون أحكام لهو حدث تاريخي بالفعل، دون أي من القوالب السينمائية لا الأمراض النفسية ولا محاولات الانتحار ولا الموت ولا حتى التحرش والاستغلال الجنسي، لقد كسرت ميسلون كل ما جاءت به السينما عن العلاقات غير المعيارية بين النساء العربيات، لكن أن يكتشف أهلها أمر تلك العلاقة ويضربونها ويحبسونها في البيت فتهرب من البيت وتهاجر إلى ألمانيا، فهو دون أدنى شك يقلب كل الموازين، من علاقة رومانسية شيقة إلى نهاية مأساوية لا تسمح إلا برؤية سلمى ضحية، قصة الإضطهاد الكلاسيكية المنزوعة السياق، وخطورة عرض الغرب كملجأ التي يمكن أن تنتهي بشرق خالي من المثليين تحديداً وغير معياري الجنسانية بشكل عام لأنه عرض يشجع على الهرب والاستسلام لا المواجهة وتغيير الواقع كما فعل المثليين/ات في الغرب، ربما نحن اليوم بحاجة إلى تصوير يتخلص فعلاً من الصور النمطية المشوهة لعلاقات النساء الجنسية المثلية كما فعلت ميسلون، لكن وأيضاً عدم ضحينتهن/هم والتسويق للتخلص منهن/هم عن طريق الهجرة، تصوير يمنحنا النهاية السعيدة المفقودة تماماً لذلك النوع من العلاقات على طول امتداد تاريخ السينما العربية، بدلاً من النهايات التعيسة التي تؤكد فكرة أن تلك الجنسانية ستنتهي بنا تعساء.

***

هكذا فإن رامي في طول عمري بهروبه إلى فرنسا وعرض الطبيب النفسي في أسرار عائلية على مروان فكرة الهرب إلى الغرب ليعيش حياة المثلي بلا وصمة وهرب سلمى من أهلها إلى ألمانيا يعيد إنتاج سيناريوهات التغريب بشكل مختلف فلا تصور تلك الأعمال الشخصيات غير معيارية الجنسانية كشخصيات متأثرة بالغرب بحد ذاتها (إن تغاضينا عن الهوية الغربية) وبالتالي إقصائها خارج الثقافة العربية، بل إقصائها بالفعل خارج الثقافة العربية بطردها نحو الغرب من خلال

[2] الكوير هو مصطلح يرفض الهوية الجنسية كأداة نضالية ويوحد صفوف كل الأفراد ذوي الجنسانيات غير المعيارية ضد المعيارية القامعة للتعدد والتنوع الجنسي في المجتمع. بحسب تعريف قاموس جمعية القوس للتعددية الجنسية والجندرية في المجتمع الفلسطيني «كوير هومصطلح يشمل الأشخاص الذين لا يتوافقون مع الجنسانية، الجنس، و/أو الجندر الذي تم تعيينه عند الولادة ومن خلال التنشئة الإجتماعية. لقب كوير ظهر كبديل راديكالي للمثليين والمثليات، كجزء من المشروع السياسي الغربي، ويكثر إستخدامه عالمياً هذه الأيام.».

أسلوب الضحينة، فرامي ضحية الحكومة المصرية، ومروان ضحية الوصمة والطب النفسي غير الأخلاقي، وسلمى ضحية أهلها ومجتمعها، يبدو أن هذا التحول الذي أصاب أسلوب التغريب السينمائي لم يكن بالفعل لصالح الشخصيات غير المعيارية الجنسانية، ويجب أن يكون للأفراد غير معياري الجنسانية وجهة نظر ونقد حيال التصويرات المرتبطة بهم/هن اليوم لأن تلك التصويرات هي ما قد يعممه المجتمع وما قد يحدد طبيعة حياتهم في المستقبل كأفراد من هذه الثقافة على هذه الأرض يستحقون إما الاحترام كبشر على أرضهم أو الشفقة كضحايا في الغرب.

من كتاب "الجنسانية اللامعيارية في السينما العربية" لموسى الشديدي.

رابط ملخص الكتاب:
https://www.goodreads.com/book/show/41732063

رابط الكتاب على جملون:
https://jamalon.com/ar/1030941.html